كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي المعروف بالاصبهاني

واختزل ثروة طائلة من « رواية عالية ، وأدب غزير » وعلم واسع باللغة والاخبار وصناعة خلفها اصحابها ولم تجد من الاخلاف من يحسنها مثلهم

وكان ابو الفرج الاصبهاني من ندماء المنصبين بابي محمد المهلبي وزير معز الدولة بن بويه الديلمي . واحتل العلم ودواته وكثرة الحفظ قلب الكاتب الاموي فلم يكن كثير العناية بمظهره . ومثله عدد لايحصى من المشتغلين بالادب والتأليف حتى في عصرنا هذا . وقد روي ذلك عن « اميل فاجيه » الناقد الفرنسي المحدث . ولم تسلم مكانة ابي الفرج وعلوكعبه في العلم من الحساد . وكان لايغتفر ذلك والناس يحذرون لسانه ويتقونه لقوته ومقدرته وكان ربما صدر منهُ شيء من ذلك في حضرة الوزير المهلبي فكان ابو محمد يتكلف احتمالها لوروده ا من ابي الفرج

وكان العصر منصرفاً الى البذخ والاسراف . وكان ابو محمد المهلبي اشبه بوزير من وزراء لويس الخامس عشر ، روي انهُ ابتاع له في ثلاثة ايام بالف دينار ورد لكي يجعلها مفارش في مجلسه !

وزاد العصر على اسرافه انهُ اطرح عنهُ بعض القيود التقليدية التي كانت تعل انتاجه الفكري والمادي . ولم يخل مع ذلك من شيوع الاوهام والاباطيل التي فوّتت عليه دراسة الحكمة والعلم العميق . فان تلك الظرائف الملكية التي وقفت عندها صناعة الاندلسيين الفني واشباهها حين وصلت الى القاهرة استحالت الى تماثيل كاملة للشعراء وغير الشعراء صيغت من الابريز واتسع استعمال الالوان من التزويق الى التصوير حتى لقد استعمل للاعلان وللانذار . وفي ذلك الوقت كان الكاتب الاموي قد فرغ من تأليف كتابيه الغريبين « الخراقات » و« الخارين والخارات » . وكان مدخراً لمؤرخ رواية كالمقريزي ان يؤلف عن ذلك العصر كتاباً في « طبقات المصورين والمزوقين »

واذا كان كتاب « الاغاني » قد حوى كل ضروب الظرف والبذخ والابهة التي اتسم فيها العرب لعهد اتساع دولتهم فان عصر الاصبهاني كان قد بلغ الغاية القصوى في التأنق في اللباس والمآكل . فكان من دون الوزير من عمال الدولة يستعمل صحاف الذهب والفضة فكيف بالوزراء والخليفة . وكان استعمال الكماليات مألوفاً شائعاً . وينسب الى ذلك العصر لبس الجوارب الحريرية والنعال المؤلفة من لونين من الجلد والتخفف بانواع من الاثواب الخالية التي

كانت عزيزة نادرة في غير الدولة الاسلامية . وكذلك نلحظ في كتاب « الاغاني » واخباره مرآة صادقة لتظرف العصر نفسه وشغفه بادب السمر والنوادر . وحتى في عهد سؤدد الدولة الاسلامية وسيطرتها بعث الدم العربي في اخلاف الجاهليين حب الشعر . بعث فيهم الهوى القديم الى رواية الشعر الغنائي

ولما اهدى ابو الفرج كتابه الذي جمعهُ في خمسين سنة الى سيف الدولة بن حمدان كان نصيبه كنصيب الفردوسي سيد شعراء فارس لما اهدى « الشاهنامه » التي نظمها في ثلاثين سنة الى الامير محمود سبكتكين[١]

فاعطاه سيف الدولة الف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانهُ يستأهل اضعافها . ووصف الكتاب فاطنب : لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو متيسر غيره ولا راقني منها سواه

وقيل : لم يكن كتاب « الاغاني » يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . ومن الممكن ان نستخلص من ذلك ذوق العصر وطبيعة ميله الى الاطلاع وتقديره للتآليف

وتأنق الكاتب الاموي في جمع كتابه وتصنيفه ودل على عناية فائقة بشرح مذاهب المغنين في صناعتهم . اما طريقة او « اسلوب » التصنيف الذي اختاره ابو الفرج الاصبهاني فهو مذهب اتبعهُ جيل عظيم من الاخباريين والمؤرخين والرواة . ولما اطلعنا على المقدمة التي صدر بها « ياقوت الرومي » كتابه « معجم الادباء » وجدنا تفاصيل تعين على تمييز ذلك الاسلوب في التصنيف وتأويله

قال ياقوت في نقد ابي بكر بن عبد الملك التارتشي « ... هذا مع ان كتابه — في اخبار الادباء — صغير الحجم ، قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها لا يختص « باخبارهم » انفسهم . . . . ثم ألف بعده في هذا « الاسلوب »[٢] ... الخ

و « صنف » فيه ابو عبيدالله محمد المرزباني كتاباً حفيلاً كبيراً على عادته في تصانيفه ... الخ

« و « ألف » فيه ابو سعيد السيرافي كتاباً صغيراً في نحاة البصرة نقلنا « فوائده »

« ثم « جمع » في ذلك ابو بكر الاشبيلي كتاباً وهو اكثرها « فوائد » و « تراجم » ...

« وفي « اخبار اهل الادب » وجدت كتاباً لعلي بن فضال المجاشعي كثير التراجم الا انه قليل « الفائدة » لكون لا يعتني بالاخبار ولا يعبأ بالترجمات والاخبار[٣]

وقال ياقوت في تصدير معجمه . و « جمعت » في هذا الكتاب ما وقع اليَّ من « اخبار » النحويين واللغويين ... وكل من « صنف » في الأدب تصنيفاً او « جمع » في فنه تأليفاً ... الخ

فاستعمل في معنى « التأليف » : صنف وجمع . وصنف الشيء جعله اصنافاً وميز بعضه

(١) كانت تتألف من ستين الف بيت فاعطاه الامير نصف درهم من الفضة ثمناً لكل بيت !

(٢) اذن هو « اسلوب » في التأليف لا طريقة (٣) يعني بلا شك التواريخ والازمنة « كرونولوجي »

من بعض . ومنه تأليف اللحون وتأليف العناصر . وهي طريقة الاخباريين اتبعوها ليسهل حفظها على الرواة . وجعل ان الأدب شيء والعلم شيء آخر . وقد كان الاغريق واللاتين يذكرون البطل او الخطيب باخباره مرتبة دون اسناد ويخلطونها بكثير من الخرافات «كليشوجيا» وهم ايضاً اصحاب الطريقة العلمية التي يخاطب فيها المؤلف شخصاً مفروضاً كأنه القارىء نفسه «اعلم وفقك الله ان كذا ... الخ» وقد اتبعها ارسطو والحكيم منكا وشيشرون من قبل ان يتبعها الغزالي وابن رشد وابن مسكويه

أما الاخبار والشعر فمن جملة علوم الادب وقد أشار الاصبهاني الى ان «المغزى في كتابه انما هو ذكر الاغاني باخبارها» . وهذا تأويل لمذهبه في رواية الكتاب . وربما كانت اخبار المغني ادق واصدق شرح لصناعته . ومن مزايا هذا «الاسلوب» في التصنيف : البيان والترتيب ومن تعابير نقدة العرب ان فلاناً العالم او الاديب «حسن الترتيب لما يصنفه» وانه «احسن تصنيفاً من الجاحظ [1]» . والجاحظ هو صاحب «البيان والتبيين» . وكان الاصبهاني حاذقاً في ترتيب اخباره ممتازاً بجمال أسلوبه وبيانه

ومنبع هذا «الاسلوب» في اعتماد الاخبار موضوعاً للتاريخ ماجرى عليه العرب بطبيعة مزاجهم من حب السمر والحديث . والعرب في الاصل تجار . وكان الشعر العربي من قبل القرآن قد استنفد العبقرية العربية . ولما صار العرب تجار اكفاء بسطوا جناح سيطرتهم على العالم

وكان للاسماء في اللغة تأثير في طبيعة التفكير والمزاج . فان معنى «تجارة» [2] في اللغة اللاتينية العلاقة الاجتماعية او المعاشرة او التبادل والمحاورة او الترسل ومنها اشتق اسم السمر او الحديث

وكانت الصيغة الاخيرة التي اكتسبها هذا الاسم هي بلا شك الرواية او الاخبار . وفي عادات العرب كما هو في كتاب الاغاني روح السمر والحديث وصور العلاقات التي كانت تربط طبقة الادباء والشعراء وارباب الفنون بالارستوقراطية العربية في الاسلام

ولقد عاب العلامة الفرنسي «ارنست رنان» على الشعر العربي انه ذاتي «Objective» وان الشاعر يتكلم فيه عن نفسه وعن حالاته الخاصة به . وان الملحمة فيه مفقودة . واصل الرأي للمستشرق «لاسن» [3] وهو لا يعيب العنصر العربي ولا الشعر العربي . لان العرب لم يكونوا شعراء بالفطرة الا لان الشعر الغنائي كان نمطاً طبيعياً فيهم

ويرى «برونتيير» ان الشعر الغنائي حين تم تكوينه كانت ذاتية اوربا قد تكونت . اذن وافق ترقي الشعر الغنائي عند العرب اكتمال ذاتية «انا قد والسم» العنصر العربي

وفي الحقيقة ان كتاب الاصبهاني يمثل وحدة علمية وادبية تستحق ان تكون رمزاً لعبقرية العنصر العربي

عبد الحميد سالم

(١) ياقوت الروي : ارشاد الادب (2) M. Lassen